رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
فاتحة الكتاب

الحمد لله الواحد المعبود، الذي ألّف بين المؤمنين الموحدين بكتابه المنزل، ونبيه المرسل، والصلاة والسلام على المصطفى المختار محمد ﷺ الذي هدانا الله به إلى الصراط المستقيم، وخلصنا به من الحيرة والضلال، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، وعلى من سار مسارهم، وسلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد دعيت في السنة الماضية (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م) للمشاركة في مؤتمر جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت الذي عنونوا له بـ «الأسس الفكرية لوحدة الأمة الإسلامية» وقد عقد هذا المؤتمر في يومين في اليوم الثالث والرابع من شهر ذي القعدة، ويوافقه الثالث عشر والرابع عشر من شهر تشرين الثاني، وقد شدّني المؤتمر إليه، فهو يبحث في قضية من أهم القضايا الإسلامية، وهي وحدة الأمة الإسلامية، وقد زاد من اهتمامي بموضوع المؤتمر أن أحد مباحثه الرئيسة تدور حول الشيخ العلاّمة الحبر الفهامة شيخ الإسلام

محمد بن عبدالوهاب، أحد بناة الأمة الأفذاذ في القرون الأخيرة، الذي خلص الله به الأمة مما أصابها من ضياع التوحيد، والتوغل في الشرك، والخرافة والدجل.

وللشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله مكانة خاصة في نفسي، فقد قدّر الله لي أن أدرس دعوة الشيخ وسيرته، كما درست مؤلفاته ورسائله، ذلك أنني درست السنتين الأخيرتين من المرحلة الابتدائية، ثم درست المرحلة الثانوية كلها في المعاهد العلمية في الرياض، وتابعت المشوار بالدراسة في كلية الشريعة بالرياض حتى حصلت على إجازتها، ودرست على جمع طيب من المشايخ الذين حملوا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأعظمهم شيخنا الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، وأنا أعتقد جازماً أنه لا غنى لمن أراد أن يدرس الأسباب التي أدت إلى تأخر الأمة وتخلفها وانحطاطها، والأسباب التي تؤدي إلى النهوض بها، لا غنى له عن دراسة سيرة هذا العلاّمة الفذ.

لقد درست الورقتين المقدمتين للمؤتمر عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ودرست قبل انطلاقي للمؤتمر ما وقع بين يدي من كتب تحدثت عن الشيخ، ثم تابعت الدراسة عقب عودتي إلى مقر إقامتي في عمان الأردن، وكانت نتيجة ذلك كله هذا الكتاب الذي

يتحدث عن سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويتحدث عن دعوته.

وقد عمقت هذه الدراسة صلتي بالشيخ رحمه الله تعالى وبمؤلفاته ورسائله، وقد أيقنت بأن الشيخ رحمه الله قام بعمل قلّ نظيره تجاه المسلمين في الجزيرة العربية خاصة، والعالم الإسلامي عامة.

لقد نجح الشيخ العلاّمة محمد بن عبدالوهاب قبل ثلاثمائة سنة تقريباً بما لم ينجح فيه علماء أعلام من قبله ومن بعده، لقد وحّد الأمة الإسلامية في الجزيرة العربية على كلمة التوحيد، وخلصها من الشرك الذي تمثل في عبادة الأموات، وأقام دولة تدين بالإسلام دون سواه، بعيداً عن العصبية القبلية، والعصبية المذهبية، وبعيداً عن البدع والخرافات والفرقة، وأقام دولة واحدة تدين بالإسلام دون سواه، وهدم القباب المبنية على القبور التي كانت تُقصد من دون الله، وأثّر في الجزيرة العربية، وخارج الجزيرة، ورسم طريق الإصلاح.

لقد أثار الشيخ محمد الناس جميعاً بدعوته، فاتّبعه كثير من الناس، وسطروا السيف مدافعين عن دعوته، وحاربوا من أراد هدم الدعوة، ومحق الدعاة الذين رضوا بها، وقام آخرون يرمون دعاة

التوحيد من هنا وهناك بنبالهم، ويحاولون قتل دعوتهم في مهدها، وكان آخر ما قاموا به أن أرسلوا جيوشهم الجرارة من تركيا ومصر، فخاض أتباع دولة التوحيد سبع سنوات من الحروب انتهت بالقضاء على تلك الدولة الفتية.

هدمت الدرعية سنة (١٢٣٣هـ)، وشرد أتباع الدعوة بعد أن هدمت دولتهم، ولكن البذرة الخيرية الطيبة كانت قد استقرت في النفوس، فلم تمضِ خمس سنوات أخرى حتى عادت الدولة إلى مثل ما كانت عليه، ففي عام ١٢٣٩هـ أعاد الأمير تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الأمر إلى ما كان عليه، وأصلح ما أفسده الخصوم، وانتظمت مسيرة الإصلاح تحت إمرته.

إن الناظر في دعوة الشيخ وسيرته تطالعه ثلاثة أمور في غاية الأهمية:

الأول: أن الشيخ تلقى العلم الصحيح الذي أهله إلى أن يصوغ نفسه وأتباعه على هدى من ربه، وقد عني بفقه التوحيد الحق، والخلاص من الشرك، وهدي إلى البصيرة في تربية الرجال وسياستهم، وقد كان بين أتباعه العالم المعلم المربي، والقائد الموجه، والسياسي المحنك.

الثاني: هدي الشيخ إلى معرفة الداء العضال الذي أصاب الأمة الإسلامية، وهدي إلى محاربته، وهذا الداء هو الجهل بالتوحيد، واتخاذ الأنداد من دون الله،وقد وجه جهوده العلمية والدعوية إلى محاربة هذا الداء، وتخليص الناس من حبائله.

الثالث: لم يكتف الشيخ بالدعوة إلى الله باللسان والقلم، ولكنه تحالف مع القوة السياسة الحاكمة، ففي العيينة ناصره أميرها، فقام الشيخ بالدعوة والتدريس، وتولى القضاء، ونفذ الأحكام الشرعية، وهدم القباب القائمة على القبور، وسوّى القبور المشرفة، وأقام الناس على الدين الحق، فلما توقف أمير العيينة عن نصرته خرج الشيخ إلى الدرعية، وحالف أميرها محمد ابن سعود، وكان لهذا التحالف دوره في إقامة دولة عظيمة، تدين بالحق وتنصره.

ومن الفوائد العظيمة التي نستفيدها من سيرة الشيخ في دعوته أن الله كتب لها النجاح، فقد امتدّ عمر الشيخ حتى ناف على التسعين عاماً، ورأى جهوده تثمر في حياته، لقد هيمنت الدولة الفتية على الجزيرة العربية، وضمّت الحجاز، ووصلت إلى اليمن، وقاربت الشام، ولولا الحرب التي واجهت بها تركيا والي مصر إبراهيم باشا هذه الدعوة لكان لها شأن آخر.

يقول الشيخ الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي في شأن هذه الدعوة وعظم أمرها: «لقد كانت دعوة الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله من أعظم أحداث القرن الثاني عشر الهجري، ليس في جزيرة العرب وحدها، ولكن في العالم الإسلامي كله، وفي ظني أنها من أعظم حركات الإصلاح في التاريخ الإسلامي بعد أن توقف المدّ الإسلامي، وضعف كيان الدولة الإسلامية، ولا أبالغ إن قلت: إنه لم يسبقها نظير لها، ولم يأتِ بعدها مثيل.

وميزتها لا تتمثل في شيء جديد في مبادئها وما دعت إليه، فإنها لم تأتِ بجديد، ولا جديد في الإسلام، فهو أحكام ووحي نزل من عند الله - تبارك وتعالى - على محمد ﷺ، فبلغ رسالة ربه، وأدى أمانته، وأكمل الله للمسلمين دينهم ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وانقطع الوحي بوفاته، عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولم يبقَ أمام أمته وأتباعه إلا اقتفاء أثره، والاستقامة بالمحجة البيضاء التي ترك الأمة عليها». [انظر هذا الكلام في مقدمة الجزء الثاني عشر من السفر الذي جمعته جامعة الإمام من مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والمعنون له بـ «ملحق المصنفات»، ص ١].

ويقول فضيلة الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق مبيناً في ورقته التي قدمها إلى المؤتمر المذكور مبيناً أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي: «نقلت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب العالم الإسلامي على العموم والجزيرة العربية على الخصوص من أوضاع أشبه بأوضاع الجاهلية الأولى إن حال من الإسلام والإيمان والدعوة والجهاد في سبيل الله أشبه بما كان عليه الصدر الأول في الإسلام.

فقد كانت الجزيرة العربية بما فيها مكة والمدينة أشبه بما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة القبور والأحجار والأشجار والأوثان، ومن الجهل بعموم أحكام الإسلام، هذا إلى قطع الطريق والإفساد في الأرض ونهب الحجيج، وتبديل مشايخ الضلال لدين الإسلام.

وجاءت دعوة الشيخ التي بدأها في حريملاء ثم في العيينة مسقط رأسه، ثم في الدرعية حيث تم العقد بين أميرها محمد بن سعود، والشيخ محمد بن عبدالوهاب فالتقى القرآن والسلطان وقامت دولة للإسلام أشبه بالدولة الأولى في المدينة النبوية المنورة».

وقد زالت كثير من مظاهر الشرك والوثنية التي حاربها الشيخ محمد بن عبدالوهاب في هذا العصر، ولكن المؤامرات التي صنعها أعداء الإسلام عظمت وازداد البلاء، فقد قسمت ديار الإسلام إلى دول كثيرة، وتسابقت الدول الكافرة إلى إذلال شعوبنا ونهب خيراتنا، وارتهنت إرادة الأمة، وأصبح البلاء الذي حلّ بأمتنا عظيماً.

وقد ألف مؤلفون في رسم مسار نهضة الأمة، وعقدت مؤتمرات، وكُتبت مقالات، وقد ارتأيت أن أعيد النظر في دراسة التجربة العظيمة التي أقامها الشيخ محمد عبدالوهاب في إقامة الأمة الإسلامية، فتجربته كانت تجربة كاملة، آتت أُكُلها الطيبة في حياته، ومن اطّلع عليها بكل أبعادها، رآها دعوة منقادة لدعوة الرسول ﷺ ، توجهت لإحياء الأصل الذي جاء به القرآن، والناس يفقهون الأمر الذي صاغ الحياة بالإسلام، أكثر مما يفقهون الأمور العلمية المجردة، والفقه السياسي، والبُعد العقدي، ولذلك تكفل الرسول ﷺ لأمته ببقاء الدين الحق المتمثل بالكتاب والسنّة كما تكفل له ببقاء فئة من الأمة ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة.

وهذه الفئة تمثل الحق في الواقع المشهود، كما يمثل الكتاب والسنّة الحق في الواقع المعلوم.

ولعل عرض تجربة الشيخ محمد رحمه الله بكل أبعادها تفيد الدعاة والعلماء والباحثين في مسار الأمة، وترتقي بالجهود المبذولة في هذا السبيل، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عمر سليمان عبدالله الأشقر

عمان - الأردن

٢٧ من جمادى الأولى ١٤٢٩هـ

١ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨م

obeikandl.com